

الكلام عن أصل السيد جمال الدين الأفغاني في بعض المراجع الروسية

لقد سافر السيد جمال الدين الأفغاني نحو طريق باكو (باقي) إلى موسكو ثم إلى سانكت بطرس بورغ (Saint-Petersburg) سنة ١٨٨٨م وقد أخبرت عن هذه الزيارة جريدة "موسكوفسكي فيدوميسي" (أخبار موسكو). وكان للشيخ لقاءات مع الأشخاص المفكرين بروسيا لتلك الفترة الزمانية ومجالس علمية. وقد نشر مقالاته عن القضايا السياسية في العالم. ودافع عن مصالح مسلمي روسيا بالصراع الفكري. وحتى استفاد منه علماء الروس ولذلك كان عضوا في الجمعية الجغرافية الروسية. وبدأ في عاصمة روسيا تعرّفه بالمسلمين التتر. وكان وفود التتر من الحجاج في الطريق إلى مكة المكرمة يزورونه عند وجوده في إستانبول من أجل استفادة علمية. وقد ذكر أحد المثقفين التتر لذلك الوقت في إحدى مکتوباته أن الشيخ الأفغاني فوق العادة يلتفت إلى المسلمين التتر وبعد ذكر أجداد التتر في كلامه دائما يزيد كلمة "رحمهم الله".^١

وقد قابلته في روسيا رضاء الدين بن فخر الدين (Rizaeddin Fakhreddinov). وهو عالم تتري من مواليد سنة ١٢٧٥ هـ (١٨٥٨ م). وكان في وظيفة أخوند (مراقب الأئمة الإقليمي) ثم عمل في الإدارة الدينية الروسية في منصب القاضي. ومن سنة ١٩٢١ م في العهد الشيوعي أصبح مفتيا لمسلمي روسيا (القسم الأوربي وسيبيريا). وقد اهتم بعلم التاريخ والتراجم وله مصنفات في ذلك، ورسائل وكتب في موضوع التربية و الأخلاق الإسلامية. وكان أحد مشاهير التتر الذين شاركوا في حركة التجديد الإسلامية في روسيا. وتوفي في سنة ١٩٣٦ م (في تلك السنة بعد وفاته بدأت الاعتقالات لعامة موظفي الإدارة الدينية وتم إعدام أغلبية هؤلاء ونفي عائلاتهم).

وكان يحسب نفسه من مريدي السيد جمال الدين بمعنى تلميذ روحي له. وقد زار مجالسه الكثيرة في سانكت بطرس بورغ (عاصمة روسيا القيصرية) من خلال فترة ١٨٨٨-١٨٨٩م. حتى ذكر ذلك في رسالته الذي كتب فيها عن العالم التتري المشهور شهاب الدين المرجاني. وكان يتأسف لعدم حضور مجالسه بمدينة قازان ولكنه افتخر بكثرة المجالس مع الشيخ الأفغاني في مدينة سانكت بطرس بورغ.^٢ والمرجاني كان رائدا لحركة التجديد الإسلامية بين التتر في روسيا و من أوائل العلماء الذين تكلموا في إصلاح المجتمع الإسلامي. وقد اعترف رضاء الدين بن فخر الدين بتأثير الأفغاني عليه وذكر أن الأفغاني فتح عينيه للحقائق الكثيرة.

واهتمت حركة التجديد الإسلامية في روسيا بإصدار الجرائد والمجلات الإسلامية باللغة التترية. ورضاء الدين كان محررا لمجلة اسمها "شورا" (الشورى). وكانت تصدر بمدينة أوفّا (عاصمة جمهورية باشقوردستان حاليا). ويهمنّا في هذا المقام أن رضاء الدين كتب مقالة كبيرة عن السيد الأفغاني نشرها بأقسام في ١٠ أعداد مجلته سنة ١٩١٧م تحت عنوان سلسلة "مشهور آدمير وأولوغ حادثه لِر" (المشاهير والحوادث الكبرى).^٣ من خلال هذه المقالة نستطيع أن نفهم مدى تأثيره بالشيخ الأفغاني ومحبه إليه. وقد كتب في المقالة المذكورة عن أصل السيد جمال الدين ونسبه وعمره وتعليماته الفلسفية وأخلاقه

انظر: رضاء الدين بن فخر الدين. شيخ جمال الدين ١١ شورا. أوفّا: ١٩١٧م ع ١٦، ص ٣٦٤.

2انظر: رضاء الدين بن فخر الدين. أترّاك بلغار وقازان (Fakhreddinev Rizaeddin. Bolgar wa Qazan Toreklere.) (Kazan: Tatarstan kitab nashriyati, 1993.-b.153-154)

3رضاء الدين بن فخر الدين. شيخ جمال الدين ١١ شورا. أوفّا: ١٩١٧م أعداد ١٤-٢٤.

وأعماله السياسية والإصلاحية وآثاره، وذكر بعض حكماته وتوصياته. وذكر آراء الناس المختلفة حوله ودافع عن فكره وشخصيته. ويعجبنا شدة حماية المفتي رضاء الدين لشخصية الأفغاني وأفكاره.

وقد ذكر في العدد ١٤^٤ أن هناك اختلاف بين معاصري الشيخ الأفغاني وتلاميذه في أصله ومسقط رأسه. مثلاً ذكر رأي العالم الإيراني محمد حسن خان اعتماد الدولة من كتابه "المآثر والآثار". وقد أشار محمد حسن خان إلى بلدة أسدآباد الإيرانية كوطن للشيخ جمال الدين. ثم أيد هذا الرأي بما ذكره أحمد بيك آغايف في مجلة "تورك يوردي" (العالم التركي). وقد تحدث أحمد بيك عن أنه لاقى السيد جمال الدين ثلاث مرات وساله عن نسله ومكان ميلاده فأخبره أن والديه من مدينة مراغة الإيرانية وانتقلا إلى همدان حيث ولد وبعد قليل هجرت عائلته إلى أفغانستان. وأحمد بيك لم يتكلم عن الأصل الشيعي للسيد جمال الدين ولكنه زعم أن الشيخ الأفغاني كان تركيا لأن مدينة مراغة تركية سكانا ولأن السيد جمال الدين كلمه عند لقائه باللغة التركية. وقد فحص رضاء الدين بن فخر الدين هذا الرأي وأشباهه واستنتج أن ليس هناك دليل صريح على الأصل الشيعي للأفغاني وعلى نسله التركي. وقد اختار رأي عبد القادر المغربي أحد مريدي الأفغاني وما ذكره محمد عبده في كتاباته عن سيد جمال الدين. والمعروف أنهما كتبا أن أساذهما من مدينة أسعدآباد بشرق أفغانستان وكان سنيا وحنفيا مذهباً. وكان للأفغاني أعداؤه وحساده الذين نشروا خبراً عن أصله الشيعي والإيراني مثل الشيخ المصري أبو الهدى لإساءة إليه. والمصدر الآخر لذلك الخبر هو شاه ناصر الدين الحاكم الإيراني الذي عمل عنده الأفغاني. والأهم من وجهة النظر الإسلامي العام أن رضاء الدين بن فخر الدين - وهو من أهل السنة والأحناف - في نهاية المطاف يقول إن هذا الحديث عن أصله لا يفيد شيئاً ولا قيمة له، يعني غير مهم هل كان عربياً أو تركيا نسلأ أو إيرانياً أو أفغانياً موطناً فأهم الشيء أفكاره وأعماله التي يشير إلى مكانته العظيمة بين المسلمين في أطراف العالم.

وهذا الاختلاف موجود حتى اليوم. في روسيا في أغلبية المراجع نجد أن الشيخ الأفغاني ولد في أسعدآباد بأفغانستان في عائلة سادة كنار وأنه كان سنياً في الأصل وطول حياته. وقد يسيطر هذا الرأي في الكتب و الموسوعات الروسية. ولم يشر أحد الباحثين في روسيا إلى أصله الشيعي أو الإيراني، اللهم إلا باحث واحد (تتري أصلاً) اسمه دولة شين ولكنه لم يذكر مصدره.^٤

وعندما بحثنا في الكتب الشروح للعقائد السنية وجدنا كتاباً قيماً بعنوان التعليقات على شرح العقائد العنصرية بإعداد سيد هادي خسروشاهي وتقديمه^٥. ثم إلى جانب هذا الكتاب اطلعنا على الكتاب من نفس السلسلة (الآثار الكاملة - السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني) بعنوان العروة الوثقى وفيها في المقدمة يذكر هذا المؤلف الإيراني مدينة أسدآباد ويجتنب نسبة الأفغاني للسيد جمال الدين.^٦ ثم فوجئنا بمعلومات من كتاب الشيخ محمد واعظ زاده الخراساني الذي يلاحظ نشاط السيد جمال الدين في تقريب المذاهب الإسلامية أو يجعله من رواد هذا الفكر الإسلامي، فيقول إن الشيخ جمال الدين بعد أن أكمل دراسته بالنجف الشريف ترقى إلى الفكر العظيم السامي ليوحد صفوف المسلمين نحو الإصلاح السياسي والاجتماعي ففهم أنه لن يستطيع ذلك بوصفه عالماً شيعياً، ولذلك سافر إلى أفغانستان ونسب نفسه إليها. وفيها تعود على لهجة

⁴انظر: رضاء الدين بن فخر الدين. شيخ جمال الدين ١١ شورا. أوفاً: ١٩١٧م ع ١٤، ص ٣١٣.

⁵انظر: Нации и ислам: Критика философско-теологических концепций о единстве наций и ислама. Казань: Татар.кн.изд-во, 1986, с.80.

⁶السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني ومحمد عبده. التعليقات على شرح الدواني للعقائد العنصرية. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ط١، ٢٠٠٢م.

⁷انظر: سيد هادي خسروشاهي. جمال الدين الحسيني حياته ونذاله ١١ السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني ومحمد عبده. العروة الوثقى. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ط١، ٢٠٠٢م، ص ٦٠.

الأفغان الفارسية وتعمق في الفقه الحنفي. واختار سادة كنار من أسعدآباد نسلا لنفسه، مع أنه كان سيّدا من أسدآباد فعلا.⁸

هذا البيان مقبول ومعقول من النواحي الكثيرة. هناك تشابه بين لفظي "أسعدآباد" و"أسدآباد"، واللفظ الأول ينطق مثل الثاني في بعض اللهجات العربية والفارسية وكذلك في اللسان التركي. فالممكن أن يستعمل هذا التشابه لأغراض معينة. ثم لهجة الأفغان الفارسية (دري) شبيهة جدا بالفصحى الفارسية فكان في استطاعة السيد جمال الدين أن يتعلمها بسرعة. والعرب في أفغانستان اتخذوا لأنفسهم لغة "دري" لأنها أسهل بنسبة لهم من لغة بوشتو. وأفغانستان مكان مناسب جدا لدراسة الفقه الحنفي لمدة قصيرة. وكان الشيخ الأفغاني من متقني اللغة العربية فهذا يؤيد تعليمه بالحنجف الشريف.

ولكنني أظن أن للسيد جمال الدين كانت أهداف سياسية غير بعيدة وكان يريد لنفسه أن يبلغ مقاما بارزا واختار لذا ساحة سياسية في أفغانستان. وأعتقد أنه في أول أمره - وهو شاب - لم يفكر في وحدة المسلمين جميعا ولم تكن له أهداف عالية وعميقة تنظر إلى آفاق بعيدة. وعسى أنه توصل إلى ذلك فيما بعد. ويلتفت نظرنا أن تلاميذه المشهورون تكلموا في استمرار عصر الاجتهاد والمعروف أن عند الشيعة الإمامية عصر الاجتهاد يستمر حتى اليوم وعندهم كثير من المجتهدين. ثم لاحظت أن محمد عبده نشر كتابا يهتمون به أتباع الشيعة، أقصد كتاب نهج البلاغة المنسوب إلى سيدنا علي كرم الله وجهه، وتركه حاليا من تعليقات خاصة على اعتقادات شيعية فيه. ويثيرنا السؤال في الأمر الآخر: لماذا تعليقات السيد جمال الدين على شرح العقائد العنصرية (وهي من أهم مصادر عقائد أهل السنة) غير كاملة؟ ولماذا لم يتكلم في مسائل خلافة بين السنيين و الشيعة، مثلا في قضية الإمامة؟ ويمكن أن نتوصل إلى بعض الحقائق إذا درسنا حياة هذا الرجل العظيم بدقة وأمانة وخاصة بتعرف بأساتذة تعلم عندهم وكتب قرأها. وقد تحدثت عن هذه القضية في بعض الجرائد والمواقع في الإنترنت (الشبكة العالمية) الروسية.

ثم هناك مثقفون من التتر كتبوا عن أصل جمال الدين الأفغاني ما عدا رضاء الدين بن فخر الدين قبل الثورة الشيوعية. وعلى سبيل المثال نذكر مؤلفا تتريا اسمه محمد عاكف. وله مقالة "الشيخ جمال الدين و محمد عبده".⁹ في هذه المقالة محمد عاكف يكرر أدلة تلاميذ الأفغاني ضد تهمة أعدائه. وطبعا يتكلم عن أصله ويرد على هؤلاء الذين ادعوا أن الشيخ الأفغاني كان بابيا وشيعيا وحتى وهابيا.

والمدافعة عن شخصية الأفغاني بلغت أهمية كبيرة عند أعضاء حركة التجديد الإسلامية بين المسلمين التتر. والمجتمع التتري الإسلامي في روسيا قبل الانقلاب الشيوعي كان تحت تأثير الفريقين: الفريق الأول متكون من رجال الدين ذوي الفكر الرجعي والمتعصبين للمذهب والمنهج القديم (لذلك سموا بالقديميين)، والفريق الثاني متكون من رجال الدين ذوي الفكر التجديدي وأهل الثقافة وسمو أنفسهم بالجديديين. فكانت راية لهم أشخاص مثل السيد جمال الدين.

وفي الوقت الحالي بدأ الجهد الجديد، واليوم الباحثون الجدد من أبناء المسلمين في روسيا يبحثون في تراث أجدادهم الإسلامي ويفحصون في قضية الإصلاح الإسلامي وتاريخه، سوف نرى بحوثا جديدة من روسيا تخرج إلى النور معلومات وحقائق لم نعرف عنها بعد، خاصة عن علاقات الشيخ جمال الدين الأفغاني مع التتر وصلة أفكار حركتهم ونهضتهم الإسلامية بأفكاره الإصلاحية.

⁸أنظر: نداء الوحدة والتقريب بين المسلمين ومذاهبهم. طهران: رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية، ١٩٩٧، ص ٢٠٥-٢٠٨. الملاحظة: المؤلف في المقالة ذكر اسم بلدة أسعدآباد باسم أسدآباد ولعل ذلك غلطة مطبعية، لأنه كان يقصد بلدة في أفغانستان.

⁹انظر: محمد عاكف. شيخ جمال الدين ومحمد عبده ١١ شورا. أوقا: ١٩١٠م ع ١٢، ص ٣٧٠-٣٧٢.

ضمير بن أدهم شهابي

عميد كلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية الروسية بمدينة قازان

Damir Shagaviev

Dean of Theology faculty – Russian Islamic University (Kazan)